

روح الشرق من شمال القارة الأفريقية

نبذة عن الموسيقى في تونس

وانل قاقيش

تتميز الموسيقى التونسية بتنوع كبير على مستوى أصنافها وألوانها حيث تنقسم الموسيقى التونسية إلى ثلاثة أنواع رئيسية الأولى ذات طابع تراثي كلاسيكي مثل المألوف والأدوار والموشحات والثانية موسيقى ذات طابع عصري بما في ذلك الأغاني بالعربية الفصحى أو الدارجة، وأخيراً الموسيقى الشعبية التي تستخدم آلات موسيقية مثل المزود أو الغيطة (الزمر) بمصاحبة بعض أنواع الطبول ذات الطابع الفلكلوري.

نبدأ في أولها وأهمها وهو **المألوف** أو **المالوف** في اللهجة الدارجة، هو أحد أنواع موسيقى الطرب الأندلسي. وهو مصطلح يطلق على الموسيقى الكلاسيكية بالمغرب العربي بقسميه الدنيوي والديني المتصل بمذاهب الطرق الصوفية. نشأ بالأندلس وارتبط في بعض الأحيان بالمذاهب، وهو لا يتقيد في الصياغة بالأوزان والقوافي، ولم يمتد هذا اللون إلى مصر وبلاد الشام، لكنه استقر ببلاد المغرب العربي.

المورث الغنائي بنصوصه الأدبية، وأوزانه الإيقاعية، ومقاماته الموسيقية التي ورثتها بلدان الشمال الأفريقي عن الأندلس، وطورتها، وهذبتها، وتتكون مادتها النظامية من الشعر والموشحات والأزجال، والدوبيت، والقوما، مع ما أضيف لها من إضافات لحنية أو نظامية محلية جمعت بينها دائرة النغم والإيقاع، وما استعاروه من نصوص والحن مشرقية. وتعتبر النوبة أهم قالب في المألوف.

أسماء هذا الفن تختلف من منطقة إلى أخرى فهو يسمى موسيقى الآلة في المغرب، والطرب الغرناطي في كل من وجدة وسلا وتلمسان ونواحي غرب الجزائر، والصنعة في العاصمة الجزائرية، والمألوف في قسنطينة وتونس وليبيا. ولكن هذه الأصناف كلها بأسمائها المختلفة، المألوف والصنعة والغرناطي ترجع إلى أصول واحدة أي الموسيقى الأندلسية التي نشأت في المجتمع الأندلسي.

أما النوبة التونسية فتتركب من معزوفات ومقطوعات غنائية تتوالى حسب ما يلي:

الاستفتاح، وهو الجزء الأول للنوبة يؤدي بطريقة مرسلة أي لا يخضع لإيقاع، ويبنى على "الطبع" أو المقام الأساسي للنوبة فيبرز أهم خصائصه وثم **المصدر**، وهو مقدمة موسيقية تشبه في هيكلتها البشرف أو السماعي التركي، وتتركب من خانتين أو ثلاثة يتخللها التسليم. ثم يليه الأبيات، وتنشد من قصيد منظوم بالفصحى في إيقاع بطيء يسمى بطايحي وتكون مسبقة بمقدمة موسيقية قصيرة. أما بعدها فيأتي **البطايجي** وهو عبارة عن أبيات ملحنة في إيقاع البطايحي (٤/٤) مسبقة بمقدمة موسيقية قصيرة في إيقاع سريع يسمى **برول** (٢/٤).

تأتي **التوشية** كحركة خامسة حسب الترتيب التقليدي للمالوف، وتنظم التوشية في إيقاع البرول وتنتهي بإيقاع البطايحي، وتتخللها إرتجالات على مختلف الآلات الموسيقية. يليها حركة **برول**، وهي مقطوعة غنائية استمدت من الإيقاع التي بنيت عليه وتشمل النوبة على عدد من البراول يتراوح بين الاثنين والأربعة يكون آخرها سريعاً ويختم به الجزء الأول من النوبة. أما **الدرج** أو **الأدراج**، فهو زجل ملحن في إيقاع ثقيل ٦/٤ يحمل التسمية نفسها، ويكون مسبقاً بمقدمة موسيقية قصيرة تسمى "فارغة" يقلب إلى إيقاع سريع يسمى "الهروب" ٢/٤ يشبه إيقاع "الملفوف" في الموسيقى الشرقية، ثم يختم بإيقاع **الدرج**.

تأتي حركة **الخفيف** كحركة ثامنة في الترتيب للمالوف وهو مبني على الإيقاعات الثقيلة نسبياً ٦/٤ ويشبه من حيث عدد وحداته إيقاع **الدرج** في الموسيقى الشرقية مع فارق السرعة في المرافقة. وأخيراً تنتهي وصلة المألوف بحركة تسمى **الختم**، وهو غناء في إيقاع سريع ٣/٤ أو ٦/٨.

النصوص الشعرية للنوبات فهي مبنية من الشعر الفصيح تطلق عليهما اصطلاح "أبيات" تليها موشحات وأزجال تتصل مواضيعها بالغزل والخمر والطبيعة، وتتضمن بعض الأختام معاني تصوفية كالعودة إلى التوحيد والتضرع إلى الله كي يعفو عن العبد المسيء. وقد جمعت نصوص النوبات والموشحات والأزجال

وهي مقطوعة غنائية استمدت من الإيقاع التي بنيت عليه وتشمل النوبة على عدد من البراول يتراوح بين الاثنين والاربعة يكون آخرها سريعا ويختم به الجزء الأول من النوبة. أما الدرج أو الأدراج، فهو زجل ملحن في إيقاع ثقيل $6/4$ يحمل التسمية نفسها، ويكون مسبقا بمقدمة موسيقية قصيرة تسمى " فارغة " يقبل إلى إيقاع سريع يسمى " الهروب " $2/4$ يشبه إيقاع " الملفوف " في الموسيقى الشرقية، ثم يختم بإيقاع الدرج.

تأتي حركة الخفيف كحركة ثامنة في الترتيب للمالوف وهو مبني على الإيقاعات الثقيلة نسبيا $6/4$ ويشبه من حيث عدد وحداته إيقاع الدرج في الموسيقى الشرقية مع فارق السرعة في المرافقة. وأخيراً تنتهي وصلة المألوف بحركة تسمى الختم، وهو غناء في إيقاع سريع $3/4$ أو $6/8$.

النصوص الشعرية للنوبات مبنية من الشعر الفصيح تطلق عليهما اصطلاح " أبيات " تليها موشحات وازجال تتصل مواضيعها بالغزل والتصوف والطبيعة، وتتضمن بعض الأختام معاني روحانية كالدعوة إلى التوحيد والتضرع إلى الله كي يعفو عن العبد المسيء. تتركز معظم مناسبات المألوف على المناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف ومواكب زوايا الطرق الصوفية، والمناسبات الاجتماعية كالأفراح وحفلات الزفاف، وغيرها من المناسبات واحياناً يشيعون به جناز شيوخ الزوايا الصوفية ومريديها، بنصوص عرفت بالششتري نسبة لأبو الحسن الششتري الزجال الأندلسي.

الآلات الموسيقية تؤدي الموسيقى التونسية عادة باستعمال آلات لها جذور شرقية. الآلات الموسيقية تعزف كموسيقى صامته أو مرافقة للمغنين في الموسيقى العصرية وموسيقى نوبات المالوف وهي في العادة مجموعات موسيقية مصغرة شبيهة بالتخت الشرقي تضم عدد من الآلات الوترية كالعود العربي والكمنجة والقانون وآلات نفخ مثل الناي أو آلة الغيطة (تشبه المزمارة الشرقي) وتستعمل خاصة في النوبات التقليدية. أما الآلات الإيقاعية فهي الطبلبة "الدربوكة" والطار ويسمى بالبندير العيساوي والرق الشرقي وآلة النقارة والصنوج النحاسية.

المقامات (أو الطبوع) في الموسيقى التونسية كثيرة ومتعددة ويظهر بعضها بعض التأثيرات من الموسيقى التركية والتي كانت تونس جزء من الدولة العثمانية، فالتأثير واضح وخصوصا في المقامات التي توجد فيها درجة السي والمي "مخفوضة"، فهذه الدرجات لا نجدها الا في الموسيقى التركية والمغربية وخصوصا في تونس والجزائر. سوف نذكر بعض وأهم هذه الطبوع:

طبوع المحير: وهو مقام طبيعي يرتكز على درجة الجهارجاه. **طبوع المحير سيكاه**، مقام يرتكز على درجة الدوكاه و يتميز بأن درجة السي. اما **طبوع الاصبعين**، فهو يرتكز على درجة الدوكاه "ري" يشبه الحجاز. أما **طبوع العرضاوي** فهو طبوع شعبي لا يتجاوز عقده الاول عن درجة او اثنتين. أما **المحير عراق** فيعتبر من الطبوع التي طبقتها الصوتية عالية نسبيا حيث انه يرتكز على درجة النوا (صول). واخيراً اخترنا **طبوع السيكاه_التونسية**، وهو يشبه مقام السيكاه الشرقي اذ ارتكازهما هو نفسه أي درجة المي نصف مخفوضة، الا أنه يختلف في طريقة الأداء.

أما في حفلة الليلة فسوف يقدم فنانونا الضيوف مجموعة متنوعة من الموروث الموسيقي التونسي والعربي شاملة على بعض الوصلات الطربية والموشحات والأغاني التونسية الأكثر تدارجاً إضافة الى بعض الأغاني لفنانين من مشاهير الغناء العربي الشرقي مثل السيدة أم كلثوم وأسمهان. نرجو أن ينال حفل الليلة على اعجابكم.